دور الأمير عبد القادر في بعث مشروع دولة جزائرية وطنية والحفاظ على مقوّماتها

The role of Emir Abdelkader in reviving the project of a national Algerian state and preserving its ingredients

العربي عمر[1]
[1] المركز الجامعي مرسلي عبد الله-تيبازة-، larbi.omar@cu-tipaza.dz

تاريخ الاستلام: 17 /2022/11 **تاريخ القبول**: 19 /2022/11 **تاريخ النشر**: 20 /2023/01

ملخص:

شكّلت مقاومة الأمير عبد القادر منعرجًا حاسما في تاريخ الجزائر، إذ واكبت مرحلة مِفصليّة ميّزها سقوط إيالة الجزائر ونهاية الحكم العثماني. في المقابل بدأت تلوح في الأفق إرهاصات نظام استعماري يسعى إلى جعل الجزائر مرتبطة ارتباطًا شاملاً بفرنسا، وبطبيعة الحال فإنّ الأمير عبد القادر كان يدرك مدى خطورة المشروع الاستعماري الرامي إلى جعل الجزائر مستوطنة أوروبية وتجريد الجزائريين من ركائز ومقوّمات هوّيتهم.

هذا ما دفع بالأمير عبد القادر إلى إعلان الجهاد ومجابهة الاستعمار الفرنسي بالسلاح، وبعث مشروع الدولة الجزائرية بكل مقوّماتها ومبادئها. و من خلال هذا سوف نحاول أن نسلّط الضوء على قضية تتعلق بدور الأمير عبد القادر في بعث مشروع دولة جزائرية وطنية والحفاظ على مقوماتها الأساسية.

الكلمات الدالة: الأمير عبد القادر، الهوية الوطنية، الدولة الجزائرية، المقاومة.

Abstract:

The resistance of Emir Abdelkader formed a wide stripper in the history of Algeria. If i twas a pivotal stage marked by the fall of the Eyale of Algeria and the end of the Ottoman rule, On the other hand, the harbingers of a colonial regime that seeks to make

Algeria a comprehensive link with France began to loom on the horizon . Of course , Emir Abdelkader was aware of the danger of the colonial project aimed at making Algeria a European settlement and neutralizing the Algerians from the pillars and their identity .
This is what prompted Emir Abdelkader to declare jihad and the area of French colonialism with weapons, and to launch a project .The penal state with all its components and principles.Through our intervention, we will try to shed light on an issue related to the role of Emir Abdelkader in creating a national penal state project and preserving its basic components .
Keywords: Emir Abdelkader , National identity , the Algerian state , The resistance.

مقدمة:

إنّ شخصية الأمير عبد القادر ومقاومته لطالما كانت محل إشادة واهتمام من طرف المؤرخين والباحثين ليس على الصعيد المحلي فقط وإنما على الصعيد العالمي أيضا، هذه الإشادة أنما هي نابعة من ذلك التأثير الذي تركه شخص الأمير عبد القادر ومقاومته النموذجية في نفوس كل من عايش الأمير أو كتب عنه، وما زاد من صيته و مكانته هو ذلك المشروع الوطني الذي بعثه في خضم عدة تجاذبات، فالأمير عبد القادر عاش مرحلة انتقالية ميّزتها عدة تأثيرات سواء على الصعيد المحلي أو الإقليمي أو العالمي . وما أقدم عليه الأمير من إعلان للجهاد وإرساء دعائم الوطنية الجزائرية بكل تجلياتها، إنما هو تحد عظيم نادرا ما يخوضه الرجال الوطنيين، وكان الأمير عبد القادر من بين الوطنيين القلائل الذين جسّدوا وطنيتهم في أبهى حلّة من خلال بعث مشروع وطني بكل مقوماته وأسسه وانطلاقا من هذا الطرح نجد أنفسنا على أعتاب الإشكالية التالية :

إلى أي مدى ساهم الأمير عبد القادر في إرساء دعائم دولة جزائرية وطنية؟

هل وُفّق الأمير عبد القادر في الحفاظ على مقومات الهوية الوطنية ومجابهة مختلف المشاريع الفرنسية الهادفة إلى طمس الهوية الوطنية وإذابة كيان المجتمع الجزائري ؟

1. الدولة في فكر الأمير عبد القادر

تصدى الشعب الجزائري للغزو الفرنسي دفاعا عن أرضه. و لكن على الرغم من المقاومة الشديدة التي أبداها الجزائريون إلا أن التفوق العسكري من حيث العدد و العدة للفرنسيين كان واضحا، الأمر الذي سهل على الفرنسيين مهمة احتلال الجزائر. و على الرغم من أن الفرنسيين تعهدوا على احترام أماكن العبادة و الحفاظ على ممتلكات الجزائريين، لكن مجمل الأحداث التي كانت على أرض الواقع أثبتت خلاف ذلك. إذ قاموا بعمليات إبادة و تهجير و تشريد و سيطروا على الأراضي الزراعية ، ونهبوا خزينة الداي . وسيطروا على أملاك الدولة ، مما جعل الجزائريين يوقنون أن أسلوب المقاومة المسلحة هو الأسلوب الأمثل لصد الاعتداءات الفرنسية و الرد عليها .[1]

وردًا على الاحتلال الفرنسي وأساليبه التعسفيّة اتجاه الجزائريين ، انطلقت المقاومة الجزائرية وكانت على مرحلتين الأولى عفويّة، تزامنت مع نزول الحملة الفرنسية على أرض الجزائر إذ كبّدت هذه المقاومة العدو خسائر كبيرة واستمرت حتى سنة 1832، والثانية بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري .[2] التي بدأت حين انتهت المرحلة الأولى ، وبمناسبة اجتماع عقده ممثلوا الأهالي في نواحي جنوب وهران سنة 1832 بايعوا محي الدين والد الأمير عبد القادر على تزعّم المقاومة ، لكنه اعتذر لكِبر سنه واقترح ابنه الأمير عبد القادر لتزعم المقاومة المسلحة وكان عمر الأمير عبد القادر آن ذاك 24 سنة ، فوافق الجميع على اقتراح محي الدين . هذه الموافقة والإجماع كانا نابعين من تلك المكانة التي حضِيَ بها الأمير عبد القادر . وبمجرد إعلان خبر تولية الأمير عبد القادر لتسلّم قيادة المقاومة المسلّحة ضد الفرنسيين بدأت تجتمع حوله القبائل والأعراش و بايعوه على السمع والطاعة وخوض غمار الجهاد معه .[3]

وأول عمل قام به الأمير عبد القادر هو العمل على استرجاع السيادة الوطنية، إذا لقد دخل في مشروع إقامة دولة جزائرية مكتملة الأُطر، فالأمير عبد القادر كان يؤمن إيمانا جازما بفكرة الدولة في إطار كيان جزائري خالص بعيدا عن التبعيّة والارتباط بأي دولة أخرى، لذلك بعث مشروعه الوطني والمتمثّل في إنشاء حكومة وإقامة جيش جزائري وتأسيس إدارة .

وإن الحكومة التي كان يصبوا الأمير عبد القادر إلى إنشائها كانت حكومة دفاع وطني ، وقد امتدت سلطة الأمير خاصة بعد امتداد سلطة الأمير على كافة الأراضي الجزائرية ما عدى بعض الأقاليم مثل الجزائر العاصمة وعنابة وقسنطينة. (4)

إن مفهوم الدولة في فكر الأمير عبد القادر كانت تجسيدا لما مرّ به وعايشه ، فالأمير عبد القادر خاض أسفارًا عديدة والتقى بمفكرين عرب ومسلمين وكلما حط به الرحال في بلد عربي إلا وجالس علماءه وفقهاءه وسياسيه وأخذ عن أفكارهم وتشبّع من آرائهم .ومنه بدأت تتخمر في ذهنه فكرة الدولة فقد كان من قبل معارضًا للسلطة العثمانية في الجزائر ، وبمجرد أن تمّت مبايعته بتاريخ 27 نوفمبر 1832 م حتى بدأ في تجسيد أفكاره على ارض الواقع ، وكان محور اهتمامه الأساسي هو بعث دولة جزائرية وطنية رائدة في تلك الفترة .(5)

كما أن شخصية الأمير عبد القادر وتربيته وأفكاره الرائدة والعلوم التي استقاها من مختلف المشارب جعلت منه رجلا مفكرا متطلّعا يصبوا إلى تحقيق غاياته. (6)

فمشروع إقامة دولة جزائرية لم يكن بالأمر البعيد عن الأمير عبد القادر نظير ما كان يحوزه من علم وبأس وفروسيّة فقد كان عالما نقيا وشجاعا قوي الصبر شديد الإيمان .(7)

هذه المقومات وغيرها جعلت الأمير عبد القادر يسعى لبعث دولة جزائرية وطنية ، وصخّر كل الإمكانيات لإنجاح مشروعه الرامي إلى إقامة أسس الدولة التي لطالما بقيت رهينة أفكاره و آماله وتطلعاته .فبعدما انطلق في حركته الجهادية ضد المستعمر الفرنسي أبان عن قوّة وحنكة لا نجدها عند كبار الضباط الذين درسوا في أعرق الأكاديميات العسكرية الأوروبية، لذلك سارعت السلطات العسكرية الفرنسية لمباشرة مفاوضات مع الأمير عبد القادر ، انتهت بتوقيع اتفاقية دي ميشال سنة 1834 م، هذه المعاهدة اعترفت ضمنيًّا بالأمير عبد القادر كحاكم للإقليم الغربي للجزائر .

ومع تطوّر دولة الأمير عبد القادر واتساع سلطته وشراسة صراعه مع الفرنسيين جاءت المعاهدة الثانية وهي معاهدة التافنة سنة 1837 م ، حيث اعترف فيها الفرنسيون بإمارة الأمير ودولته وتبادلوا معه التمثيل الدبلوماسي والعلاقات التجارية . إنّ المعاهدات التي عقدها الأمير كانت فرصة سانحة له من أجل بعث مشروعه الوطني

و تنظيم دولته.

إذا فدولة الأمير عبد القادر تقوم على بنية الوحدة والتلاحم لا على الفرقة والتشتت، لذلك بدأ في مرحلة جمع الصفوف وتوحيد المقاومة، كما أدّب بعض القبائل والفئات المعارضة له ولسلطته، مثل قبائل الدوائر والزمالة وابن أنجاد. وكانت معارضتهم من رفضهم الخضوع لقيادة الأمير باعتبارهم كانوا موضع عز في العهد العثماني وأبانوا عن ترددهم في إعلان الجهاد.[8]

1.1. خصوصية لقب الأمير وعلاقته بالدولة :

إن لقب الأمير يحمل في طياته معنى عميق ومغزى كبير ، وهذا باعتراف من الجنرال ديميشيل الذي اعتبر أن لقب الأمير سوف يتيح لعبد القادر الجزائري إمكانية التطور زمانا ومكانا ، ويُعتبر أكثر وضوحا وبذلك فإنه يفيد اعتراف فرنسا بالأمير عبد القادر كأمير للمؤمنين . كما أن فرنسا أقرّت بحقيقة نفوذ الأمير بعد القادر لذلك حاولت مجاراته، خوفًا من أن يبسط نفوذه على كامل ربوع الجزائر ، وفعلاً هذا ما كان يصبوا الأمير إلى تحقيقه .[9]

كما أن الأمير كان يدرك أن النتيجة السلبية التي آلت إليها المقاومة الجزائرية عندئذ لا ترجع في حقيقة الأمر إلى التفوق المادي والعسكري و الفني الذي كان عليه العدو بقدر ما ترجع إلى الوطنية الضيّقة والنزعة المحليّة وإلى الروح القبلية والصراع على النفوذ والسلطة .[10]

وهذه من أكبر الدوافع التي ساهمت في دفع الأمير إلى التعجيل ببعث مشروعه الوطني، لأن مشروع دولة جزائرية وطنية من شأنه أن يولِّد شعورًا وطنيًا يكون كفيلاً بضمان وحدة وطنية قادرة على التصدي للمحتل الفرنسي وطرده.

2. دور الأمير عبد القادر في إرساء دعائم دولة جزائرية وطنيّة

كانت الجزائر في العصر الذي عاش فيه الأمير عبد القادر تُحكم من طرف الأتراك العثمانيين الذين استمر حكمهم للجزائر من 1516 إلى 1830 م وهو عصر ترسخت فيه الدولة الجزائرية بحدودها،وقد انصهرت وحدة الشعب الجزائري في مواجهة الغزو الصليبي ، منذ

الفترة الحديثة فبرز كيان الجزائر المتميّز كدولة ذات حدود واضحة تحكمها القوانين وتعقد المعاهدات مع الدول الأجنبيّة. (11)

وبعد سقوط إيالة الجزائر وسقوط الداي وبداية التوسّع الفرنسي في الجزائر كان لابد من شخصية وطنيّة تحمل راية الجهاد وتتصدى للاحتلال الفرنسي ، فكان الأمير عبد القادر الشخص المناسب الذي كانت الجزائر في أمسّ الحاجة إليه، ولقد لبى الأمير النداء وباشر مشروعه الجهادي والتنظيمي. هذا المشروع كان لابد أن يرتكز على دعائم تُساهم في بعث دولة جزائرية وطنية. فما هي الدعائم التي استند عليها الأمير عبد القادر في بعث مشروع دولة وطنية جزائرية ؟

1.2. الدين الإسلامي :

إن الدين الإسلامي كان من الدعائم والركائز التي ساهمت في قيام الدول واستمرارها، لذلك حضي الدين بمكانة خاصة في مشروع الأمير عبد القادر ، وإن مشروعه الجهادي كان باسم الدين، بالإضافة إلى طبيعة وخصوصية الفرد الجزائري الذي ارتبط ارتباطا وثيقا بتعاليم الدين الإسلامي ومبادئه .وكان الأمير يُدرك ذلك إدراكا كاملاً نظرا لتكوينه الديني وانتمائه إلى الطريقة القادريّة، فأساس دولة الأمير عبد القادر التي باشر في بعثها ما كانت لتلقى تجاوبًا وقبولاً في أوساط الشعب الجزائري لو لم تستند على دعائم دينيّة. كما أن الأمير عبد القادر سار في بناء دولته على نهج الخلفاء الراشدين واقتبس من سياستهم ونُظمهم. (12)

2.2. المجتمع الجزائري:

إنّ المجتمع الجزائري كبقية المجتمعات الإسلامية يجمع بين أفراده الشعور بالانتماء إلى العالم الإسلامي ووحدة الدين ووحدة الأمة ووحدة الأرض الإسلاميّة.(13) هذا ما ساعد الأمير عبد القادر على الاستفادة من هذه الخصوصيات وتوظيفها في صالح مشروعه الوطني. وكما هو متعارف عليه فإن سيادة الدول مرهونة بشعوبها فلا يُعقل أن يقوم كيان دولة ما دون شعبها ، لذلك باشر الأمير عبد القادر في سياسة جمع الشتات وتوحيد الرؤى بين مختلف القبائل، فوحدة الشعب الجزائري في تلك الفترة كانت ضرورة ملحّة أملتها الظروف والمتغيرات فمجابهة

الاستعمار يتطلب وحدة شاملة جامعة يشترك فيها أبناء الشعب الجزائري، وقد وجد الأمير عبد القادر آذانا صاغية لدعوته وأتباعا مؤيدين لمشروعه، وقد وُفّق لحدٍ بعيد في جمع صفوف أبناء الجزائر، وكانت تنطلق المقاومة في الغرب أو في الوسط باسم الأمير عبد القادر . فبعد جمع الصفوف وتوحيدها انتقل الأمير عبد القادر إلى الدعامة التالية. (14)

3.2. الجيش:

إنّ أول مشروع نادى به الأمير عبد القادر هو الجهاد ضد المستعمر الفرنسي، وإنّ هذا المشروع يتطلب رجالاً أكفّاء ومخلصين، فكان حرص الأمير عبد القادر حرصًا شديدا على تجنيد الرجال وشحذ هممهم لمجابهة العدو والشهادة في سبيل الله، ومن المؤكّد أن الأمير كان يُدرك مدى خطورة المشروع الفرنسي الرامي إلى جعل الجزائر مستوطنة أوروبية، لذلك عيّن الأتباع وجنّد الرجال في كل أنحاء الجزائر حتى يستعين بهم في جهاده وتحقيق مشاريعه. فالجيش كان ضمن أولويات الأمير لذلك جهّز جيشه عُدّةً وعتادًا وطوّر مصانع الأسلحة.

حتى أنه استعان بالأوروبيين لتدريب جيشه لأن متطلبات العصر دفعته لمواكبته، فلا يمكن أن تحابه عدوك وأنت تجهل تقنياته وتكتيكه وخططه واستراتيجياته الحربية. وهذا ما دفع بالأمير للاستعانة بخبراء أوروبيين في المجال العسكري، الأمر الذي ساهم في قوة واستمرار مقاومة الأمير عبد القادر لمدة فاقت 15 سنة. (15)

4.2. الحدود والأقاليم:

إنّ الحدود تُمثّل سيادة الدولة على أقاليمها فلا يُمكن أن نعتبر دولةً ذات سيادة بدون أقاليمها الجغرافية وإن الأمير عبد القادر أدرك ذلك ، وهذا ما جعله يُوسّع في نطاق مقاومته ويُعين الخلفاء والأتباع في كل ربوع الجزائر. كما سعى لضم عدة أقاليم تحت لواء سلطته ، وإن عقده لاتفاقيتي التافنة ودي ميشيل كان يرمي من ورائهما إلى توسيع الأقاليم التابعة له ، إذا فالسلطة الفعليّة للأمير كانت تشمل ثلاثة أرباع الدولة الجزائرية، فقد امتدت سلطته من شواطئ البحر الأبيض المتوسط باستثناء مدن محدودة شمالاً إلى أعماق منطقة الهقار جنوبًا، وهي المنطقة الجزائرية المحاذية للنيجر والمالي، ومن تلمسان غربًا وهي المنطقة المحاذية للمغرب

إلى سطيف شرقًا، شاملة بذلك منطقة جبال جرجرة وممتدة جنوبًا حتى بسكرة وواد سوف في الجنوب الشرقي وهي المنطقة المحاذية لتونس وليبيا . (16) إذا فتلك هي حدود الدولة الجزائرية التي أقامها الأمير عبد القادر ودامت أكثر من 15 سنة وكان المنادون الذين يُعبّئون الجزائريين للجهاد يُحفزونهم ويدعونهم للتجنيد والجهاد وراء قائد المقاومة الجزائرية الأمير عبد القادر، الذي تبدأ حدود دولته غرب وجدة وتمتد شرقا حتى تونس. (17)

5.2.الخلفاء والأتباع:

إنّ الأمير عبد القادر في جهاده كان في أمس الحاجة إلى أتْباع مخلصين وهذا ما دفعه لتعيين خلفاء في كل ربوع الجزائر، فعيّن البوحميدي على إقليم تلمسان وضواحيها ، وعيّن البركاني على المدية وعلى بعض الأقاليم التابعة لها ولقد تمثّلت مهمة هؤلاء الخلفاء والأتباع في حشد الحشود وإعدادهم للجهاد تحت راية الأمير عبد القادر، كما أنهم كانوا يُبلّغون قرارات الأمير ويجمعون الزكاة ويُنظّمونا لصفوف وينقلون أخبار العدو ويفصلون في المسائل الدينية والاجتماعية.

إذا فهؤلاء الخلفاء كانوا بمثابة وزراءً للأمير وساعدوه في بعث تنظيم إداري للجزائر، كما أنهم كانوا بمثابة مستشارين للأمير فكثيرا ما عارضوه ولم يُؤيدوه في بعض القرارات التي اتّخذها . (18)

6.2. الاقتصاد:

إنّ الجانب الاقتصادي بتفرعاته يُعتبر شريان الدول، وإن سيادة الدول مرتبطة بسيادتها الاقتصادية، وهذا ما دفع بالأمير عبد القادر إلى التركيز على الجوانب الاقتصادية من أجل بعث دولة جزائرية متكاملة الأُطر، وقادرة على تأمين مختلف المتطلبات التي يبقى الفرد الجزائري دائمًا في حاجة ماسة لها ، لذلك حاول الأمير عبد القادر بعث مشروعه الاقتصادي ، وإنّ نجاح مشروعه كان يواجه تحديات تمثلت في تشديد الخناق على الجزائريين من طرف فرنسا بمعيّة المعمّرين الأوروبيين ، وأيضا السيطرة المفروضة من طرف فرنسا على الاقتصاد الجزائري ، وغالبا ما يرتبط اقتصاد الدول بتجارتها ، وهذا ما أقدم عليه الأمير عبد القادر ،

فقد سعى إلى بعث نشاط تجاري داخلي ومع الدول المجاورة وحتى مع فرنسا بعد أن عقد معها اتفاقية السلام، كما أنه حاول أن ينافس التجارة الفرنسية وسعى إلى ضرب الاقتصاد الفرنسي في الجزائر من خلال حث الجزائريين على مقاطعة المنتوجات الفرنسية . [19]

من خلال هذه الدعائم التي استند عليها الأمير عبد القادر يتضح لنا أن الأمير كان نموذجا للحاكم المسلم فقد نشا نشأة دينية أثرت في سلوكه الشخصي قبل توليته وبعدها ،إذا كان سلوكه في حياته اليومية قبل مبايعته سلوك زعيم ديني ولم يحد عنه بعد ذلك ، ولما بويع بالإمارة اتخذ مثله الأعلى سيرة الخلفاء الراشدين .[20] وكان القران هو دستور دولته التي اختار قادتها من رجال الدين، وكانتا الدعامتان الرئيسيتان لهذه الدولة وهما الإسلام والجهاد بواسطة الجيش وهو القائل سأحكم والقانون في يدي والقانون عنده يعني به الشريعة الإسلامية.[21]

3. جهود الأمير عبد القادر في الحفاظ على مقومات الهوية الوطنية

إنّ تولّي الأمير عبد القادر للمقاومة الشعبية في غرب و وسط الجزائر من 1832 إلى1847 كان إيذانا لبداية مرحلة جديدة ، فقد تبنى علما مغايرا للعلم الذي كان مُعتمدا من طرف الدولة العثمانية في الجزائر، و كان علم الأمير باللون الأخضر ، رُسمت على رايته يد مبسوطة . [22] أحيطت في شكل نصف دائري بالعبارة التالية " نصر من الله وفتح قريب " مع إضافة عبارة ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين. [23]

إن ظهور العلم الخاص بالأمير عبد القادر كانت له عدّة دلالات أبرزها الاستقلال السياسي عن الدولة العثمانية، وميلاد دولة جزائرية لا تدين بالتبعيّة والولاء لأي دولة أخرى، فبعدما فشل الداي حسين في التصدي للجيش الفرنسي ،اعتبَر الأمير عبد القادر أن الحكم العثماني في الجزائر قد انتهى ولم يعد بالأمر الوارد، لذلك بعث مشروع دولة وطنيّة جزائرية. واقتنع بضرورة تغيير الأنظمة والقوانين التي كان جاري العمل بها من قِبل العثمانيين، فكانت دولة الأمير قائمة على العدل والمساواة إذ أبطل في دولته الامتيازات التي كانت ممنوحة للأتراك، كما ألغى الامتيازات والخصوصيات التي كان يحضا بها الكراغلة وقبائل المخزن، وبذلك بثّ المساواة وأرسى دعائمها. [24]

إنّ الأمير عبد القادر كان موقنًا بأن مشروع دولة جزائرية وطنية يرتبط ارتباطًا راسخا بهوية هذه الدولة فمقومات الهوية الوطنية تُعتبر ركيزة أساسية، والاحتلال الفرنسي للجزائر لم يكن احتلالا عسكريًا فحسب، وإنما نواياه كانت أكبر من ذلك فقد كانت مقومات الهوية الوطنية الجزائرية ضمن حسابات فرنسا الاستعمارية وحاولت ضربها بل راحت تُجسّد مشاريعها لسلخ الجزائري عن ركائز هويته، وهذا الأمر ما كان ليخفى على الأمير وخلفائه وأتباعه، فأخذ على عاتقه مقاومة فرنسا عسكريًا ودينيًا وثقافيًا وحضاريًا. ومنه كان الأمير عبد القادر السبّاق لصون مقومات الهوية الجزائرية. ومن بين هذه المقومات نذكر:

1.3. الـــــدّين :

حملت الحملة الفرنسية في أساسها بذور التنصير وسعت إلى القضاء على الدين الإسلامي وإحلال المسيحية محلّه ويظهر لنا ذلك في خطاب قائد الحملة الفرنسية دي بورمون حينما خاطب الجيوش المشاركة في الحملة ، إذ قال لهم بصريح العبارة أن عهد الإسلام قد ولى وستحُلّ محله المسيحيّة، وهذا ما نلمسه في تلك التجاوزات التي قام بها الجيش الفرنسي من تدنيس للمساجد وهدمها وتحويله إلى كنائس وإسطبلات. (25)

وما أقدمت عليه فرنسا الاستعمارية من تخريبٍ للمساجد والزوايا والكتاتيب ومؤسسات الوقف ما هو إلا بداية لما هو قادم، فمنظرو السياسة الفرنسية الاستعمارية كانوا يُدركون أنّ هذه المؤسسات الدينية لم تكن تُمثل سوى حاضنة للدين الإسلامي وباعثة لتعليمه وتعاليمه، غير أن الدين الحقيقي ليس بين جدران هذه المؤسسات الدينية وإنما هو متعلّق بوجدان كل جزائري مسلم .لذلك سعت إلى إيجاد وسيلة لزعزعة إسلام الجزائريين، فشنّت حملات تنصيرية من خلال إنشاء أول أسقفية في الجزائر من طرف أنطوان ديباش بالحراش سنة 1838، وكانت تُمثل الرّكح الذي تنطلق منه المسيحيّة إلى كافة إفريقيا وذهبت فرنسا الاستعمارية إلى أبعد من ذلك إذ قامت بجمع الأطفال اليتامى من أبناء الجزائريين وتنصيرهم وإبعادهم عن الدين الإسلامي وتعاليمه، كما أقدمت على إنشاء الآباء البيض فيما بعد.

إن هذا المشروع التنصيري ما كان ليخفى عن الأمير عبد القادر ، إذ باشر في إعطاء تعليمات إلى خلفائه وأتباعه بصيانة المؤسسات الوقفيّة وفتح الزوايا والكتاتيب وبناء المساجد،

حتى وإن كانت الحرب تضع أوزارها فالتعليم الديني كان ضمن أولويات الأمير عبد القادر ، كيف لا وهو من تشبّع بالتعليم الديني وبدأ تدريس الطلبة وعمره 18 سنة، كما أنه قام ببناء زوايا ومساجد في كل الأقاليم التي كانت تحت سلطته وأوفد لها طلبة العلم والفقه والتفسير وأعدّ لهم كل الظروف المواتية لتعلم أحكام الدين وأصوله وقد اعتمد على مشايخ مؤهلين لتأدية هذه المهمة الحساسة.

ونظرا لجمع الأمير عبد القادر بين العلوم والمعارف والحنكة والقُدرة على الإدارة، فإنه وُفق إلى حد ما في مجابهة المشروع التنصيري .[26] كما أظهر حزما وشدة مع كل متساهل في تعاليم الدين الإسلامي ووقف على تطبيق الشعائر الدينيّة وأولى أهمية للعلماء والفقهاء وأجزل لهم العطايا حتى يُوفّر لهم سُبل الحياة الكريمة، ويمنع هجرتهم إلى البلدان الأخرى.

وكانت مؤسسات الأوقاف تُعتبر موردًا هاما لمساعدة طلبة العلم ومشايخهم، و ما أقدمت عليه السلطات الاستعمارية الفرنسية من استيلاءٍ وهدم لهذه المؤسسات ساهم في خفض موارد الطلبة ومشايخهم وانعكس حتى على التعليم الديني. [27]

وقد اضطر الأمير عبد القادر إلى تخصيص أموال من ميزانية دولته لتعويض نُدرة عائدات الأوقاف نتيجة ضمّ السلطات الفرنسيّة مؤسسات الوقف إلى أملاك الدولة.[28]

2.3. اللغة العربيـّة:

بمجرّد دخول الاستعمار الفرنسي للجزائر بدأ بالمساس بالهويّة الوطنية للجزائريين، وقد اعتبر القرار الصادر من وزير الداخلية الفرنسي أن اللغة العربية لغة أجنبيّة لا يجوز تعليمها في الجزائر، ومنه يتّضح لنا أن السياسة الفرنسية بالجزائر كانت متّجهة إلى جعل الجزائر فرنسيّة ومحاربة اللغة العربيّة والقضاء عليها وظهرت أولى إرهاصات هذه السياسة في ضرب مؤسسات التعليم العربي، بداية من الزوايا والكتاتيب والمعاهد المتخصّصة. لقد استهدفت الإدارة الفرنسية الزوايا بدرجة أكبر نظرا للأهمية التعليمية التي كانت تحظى بها، كما أنّه كان للزوايا مشاركةً فعّالة في مجابهة الاستعمار وأبانت عن جهود كبيرة وكثيفة في مقاومة الفرنسة والتنصير وعملت

على حماية الشخصية العربية الإسلامية بواسطة نشر الدين واللغة العربيّة والثقافة العربيّة بمختلف الوسائل والسُبُل والإمكانيات، وهذا ما انعكس إيجابا على الجزائر وشعبها.

وقد ضمت الزوايا عددا معتبرا من أبناء الجزائريين الذين كانوا يقصدونها بنيّة حفظ القرآن وتعلم الكتابة والقراءة وقواعد اللغة العربيّة، فكانت الزاوية تمثل إشعاعا ثقافيا وعلميًّا . [29]

ولقد عمل الأمير عبد القادر على بعث التعليم العربي ردًا منه على سياسة فرنسا الرامية إلى فرنسة الجزائر، خاصةً بعد أن أسس الفرنسيون نواة المكتبة العمومية في الجزائر سنة 1835 من طرف الماريشال كلوزيل ومساعده وكاتبه الخاص بيربروجر . [30]

كما أقدمت السلطات الاستعمارية على هدم مؤسسات التعليم العربي ومصادرة كتبها ومخطوطاتها، فقد قام بيربروجر بالاستحواذ على 600 مخطوط أو أكثر في اللغة العربية وآدابها، وبالتالي حاولت السلطات الاستعمارية وضع يدها على التعليم العربي ومؤسساته ومعلّميه، فقد قامت بتهجير وإبعاد المعلّمين والأساتذة من أجل إفراغ الجزائر من عقولها ومعلّميها.

كان الأمير عبد القادر يكافح على عدّة جبهات وإن قضية التعليم العربي وفرنسة الجزائر كانت تمثّل تحديا آخر وجد الأمير نفسه أمام هذا التحدي مرغما على مجابهة السياسة الفرنسية الرامية إلى تشويه التعليم العربي واستئصاله من الجزائر.

ولقد قام الأمير عبد القادر بمراسلة خلفائه في الأقاليم الخاضعة لسلطته وحثّهم على العناية بالتعليم العربي

و تحفيز الجزائريين على تعليم أبنائهم وتوفير كل السُبل الممكنة من أجل بعث تعليم عربي قادر على التصدي لمشروع الفرنسة.

وبشهادة شارل هنري تشرتشل فإن الأمير عبد القادر استطاع أن ينشر بين مواطنيه الثقة والتضحية كما أنه وُفّق في بعث الشخصية العربية التي بدأت تظهر وتتطور نتيجة ما أبداه الأمير من اهتمام بالتعليم العربي وإحياء ذلك الانتماء إلى العالمين العربي والإسلامي. [31]

4. الخاتمة

إن المقاومة التي باشرها الأمير عبد القادر بإيعاز من القبائل الجزائرية، لم تكن بالمقاومة العادية فهي التي شكّلت البنية الأساسية التي انطلق منها الأمير عبد القادر في بناء دولة جزائرية وطنية، لأن الأمير كان يؤمن بضرورة بعث مشروع وطني وحدوّي في إطار مرتكزات ودعائم دينية وحضارية، بعيدا عن مغبّة الانصهار في حضارة الغير أو التبعية السياسية لدولة أخرى.

ففكرة بعث دولة وطنية جزائرية بدأت ترى النور مع سقوط الجزائر في يد الفرنسيين وبداية مقاومة الأمير عبد القادر، التي امتد انتشارها إلى أغلب ربوع الجزائر، وهذا ما ساعد الأمير على بعث مشروعه الوطنيّ والتأسيس لدولة جزائرية وطنية ذات سيادة كاملة. وكان الأمير يدرك أن قيام هذه الدولة الوطنية يستند إلى دعائم ومقوّمات لذلك سعى سعيًا حثيثا للحفاظ على مقومات الهوية الوطنية الجزائرية والتصدي للمشاريع الفرنسية الرامية إلى إلحاق الضرر بهذه الهوية التي تُعتبر ركيزة أساسية باستمرار كيان أي دولة.

ولقد وُفّق الأمير عبد القادر في بعث مشروعه الوطني واستطاع أن يؤسس لفكر جديد غلب عليه الطابع الوحدويّ في إطار دولة جزائرية وطنيّة بكل مقوماتها .

5.الهوامش

[1] – LOU Dimarco , losing the moral compass Torture and Guerre Revoultionnaire in the Algeria war, Kansas,2009,p 65.

[2] – وُلِد الأمير عبد القادر سنة 1807 م ، نشأ نشأةً دينية علمية ، تتلمذ على يد والده وكبار علماء عصره ، إذ درس القرآن الكريم والفقه وبرع في الأدب ، فكان من كبار الشعراء و الأدباء ، سافر لأداء مناسك الحج سنة 1825 ، وزار تونس ومصر والعراق والشام ، عاد إلى الجزائر سنة 1828 م ، وبعد الاحتلال الفرنسي قاد مقاومة مسلحة ضد الاحتلال الفرنسي . أنظر : برونو فتيين، الأمير عبد القادر الجزائري، ترجمة ميشيل خوري ، دار عطية للنشر، بيروت ، لبنان ، د ت .

[3] – أنوار هاشم سعد البدري ، موقف الأحزاب الجزائرية من سياسة الاحتلال الفرنسي للجزائر 1918 – 1954 م ، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ المعاصر ،كلية الآداب ، جامعة ذي قار ، العراق ، 2016 ، ص 11 .

[4] – أنوار هاشم سعد البدري ، المرجع السابق ، ص 11 .

[5] – شارل هنري تشرتشل ، حياة الأمير عبد القادر ،ترجمة أبو القاسم سعد الله ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1986 ، 45 .

[6] – عبد الحميد بن هدوقة ، الأمير عبد القادر والمجابهة الغير متكافئة ، مجلة الثقافة ، عدد خاص – 75 ، الجزائر، 1983 م، ص 193 .

[7] – رابح تركي ، من أعلام الجهاد الإسلامي في الجزائر ، مجلة الثقافة الجزائرية ، العدد 88 ، الجزائر ، 1985 ، ص 93 .

[8] – حميدة عميراوي ، معاهدة الدوائر والزمالة ، مجلة الثقافة ، العدد 18 ، وزارة الثقافة الجزائرية ، الجزائر ، 1985 ، ص 128 .

[9] – عبد الحميد زوزو ، مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال دي ميشيل وثائق خاصة بتاريخ الجزائر في عهد الأمير عبد القادر ، ط خ ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع،الجزائر ، 2013 ، ص 9 .

[10] – عبد الحميد زوزو،المرجع السابق، ص 13 .

[11] – رابح تركي ، المرجع السابق ، ص 93 .

[12] – فتحي عبد الكريم،الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي، ط 2 ، مكتبة وهبة، القاهرة، 1984، ص 24 .

[13] – رابح تركي ، المرجع السابق ، ص96 .

[14] – رابح تركي، المرجع السابق ، ص 98 .

[15] – محفوظ قداش، جيش الأمير عبد القادر ، مجلة الثقافة الجزائرية، عدد خاص ، الجزائر، 1983 ، ص 56.

[16] – إسماعيل العربي، الأمير عبد القادر الجزائري مؤسس دولة وقائد شعب، د ط، وزارة الثقافة، الجزائر، 1984 م، ص 21 .

[17] – محفوظ قداش، المرجع السابق، ص56 .

[18] – إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 26 .

[19] – محاضرات حول الأمير عبد القادر، متحف المجاهد لولاية معسكر، الجزائر، 26 ماي 2018 م .

[20] – محفوظ قداش، عبد القادر الإنسان، مجلة الثقافة الجزائرية، العدد 75، الجزائر، 1983، ص 280 .

[21] – عبد الله شريط ومحمد المبارك الميلي، مختصر تاريخ الجزائر ، د ط ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985 ، ص 225.

[22] – إنّ اليد المبسوطة التي وُضعت على علم الأمير عبد القادر كانت تحمل دلالة أركان الإسلام الخمسة، وبالتالي فأصل "الخامسة" كما هو معروف باللغة الشعبية ليس لصد عين الحسود كما هو منتشر في بعض الأوساط الجزائرية، إذًا فاليد المبسوطة لها دلالة دينيّة. أنظر: شاوش حباسي، العلم الوطني الجزائري المعاصر وتطوره الشكلي وتحليل لمضمونه الإيديولوجي والسياسي 1918 –1945، دط، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 1996، ص 12.

[23] – محمد بن عبد القادر الجزائري ، تُحفة الزائر في تاريخ الجزائر ومآثر الأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، ج 1، دار اليقضة العربية، 1964، ص 195.

[24] – ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، ج 2، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص206 – 207 .

[25] – حمدان بن عثمان خوجة،المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، منشورات A N E P، الجزائر،2005 ،ص 275.

[26] – الأمير أحمد بن محي الدين الجزائري الحسني، سيرة الأمير عبد القادر الحسني ، إشراف وتحقيق جمال الدين القاسمي، مؤسسة الأمير عبد القادر الجزائري الوطنية، الجزائر، 1442 هـ – 2020 م ،ص 21.

[27] – محمد دراجي ، الإسلام في الجزائر في العهد الاستعماري، عالم الأفكار للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 13 .

[28] – محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، دار الأمة للطباعة و النشر والتوزيع، الجزائر، د ت ، ص 67.

[29] – يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات الدينيّة في الجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مجلة الثقافة، العدد 36، الجزائر، 1981، ص ص 20 – 21.

[30] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ط 1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1998، ص 38.

[31] – شارل هنري تشرتشل، المصدر السابق ، ص 73.

6. قائمة المراجع:

المصادر :

1. الأمير أحمد بن محي الدين الجزائري الحسني، **سيرة الأمير عبد القادر الحسني**، إشراف وتحقيق جمال الدين القاسمي، مؤسسة الأمير عبد القادر الجزائري الوطنية، الجزائر، 1442 هـ- 2020 م.
2. حمدان بن عثمان خوجة،**المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، منشورات A N E P، الجزائر،2005.
3. شارل هنري تشرتشل ، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة أبو القاسم سعد الله ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1986.
4. محمد البشير الإبراهيمي، **في قلب المعركة**، دار الأمة للطباعة و النشر والتوزيع، الجزائر، د ت.
5. محمد بن عبد القادر الجزائري ، **تُحفة الزائر في تاريخ الجزائر ومآثر الأمير عبد القادر**، شرح وتعليق ممدوح حقي، ج 1، دار اليقضة العربية، 1964.

المراجع :

6. LOU Dimarco , **losing the moral compass Torture and Guerre Revoultionnaire in the Algeria war**, Kansas,2009.

7. أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 3، ، ط 1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1998.
8. إسماعيل العربي، **الأمير عبد القادر الجزائري مؤسس دولة وقائد شعب**، د ط، وزارة الثقافة، الجزائر، 1984 م.

9. برونو فتيين، **الأمير عبد القادر الجزائري**، ترجمة ميشيل خوري ، دار عطية للنشر، بيروت ، لبنان ، د ت.

10. شاوش حباسي، **العلم الوطني الجزائري المعاصر وتطوره الشكلي وتحليل لمضمونه الإيديولوجي والسياسي 1918 –1945**، دط، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 1996.

11. عبد الحميد زوزو ، **مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال دي ميشيل وثائق خاصة بتاريخ الجزائر في عهد الأمير عبد القادر**، خ ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع،الجزائر ، 2013.

12. عبد الله شريط ومحمد المبارك الميلي، **مختصر تاريخ الجزائر**، د ط ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

13. فتحي عبد الكريم،**الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي**، ط 2 ، مكتبة وهبة، القاهرة، 1984.

14. محمد دراجي ، **الإسلام في الجزائر في العهد الاستعماري**، عالم الأفكار للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

15. ناصر الدين سعيدوني، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة**، ج 2، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.

المقالات :

16. حميدة عميراوي ، **معاهدة الدوائر والزمالة**، مجلة الثقافة ، العدد 18 ، وزارة الثقافة الجزائرية ، الجزائر ، 1985.

17. رابح تركي ، **من أعلام الجهاد الإسلامي في الجزائر**، مجلة الثقافة الجزائرية ، العدد 88 ، الجزائر ، 1985.

18. عبد الحميد بن هدوقة ، **الأمير عبد القادر والمجابهة الغير متكافئة**، مجلة الثقافة ، عدد خاص – 75 ، الجزائر، 1983 م.

19. محفوظ قداش، **جيش الأمير عبد القادر**، مجلة الثقافة الجزائرية، عدد خاص ، الجزائر، 1983.

20.محفوظ قداش، **عبد القادر الإنسان**، مجلة الثقافة الجزائرية، العدد 75، الجزائر، 1983.

21.يحي بوعزيز، **أوضاع المؤسسات الدينيّة في الجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين**، مجلة الثقافة، العدد 36، الجزائر، 1981.

المذكرات:

22.أنوار هاشم سعد البدري ، **موقف الأحزاب الجزائرية من سياسة الاحتلال الفرنسي للجزائر 1918 – 1954 م**، ، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ المعاصر ، كلية الآداب ، جامعة ذي قار ، العراق ، 2016.

المحاضرات :

23.**محاضرات حول الأمير عبد القادر**، متحف المجاهد لولاية معسكر، الجزائر، 26 ماي 2018م.